# أثر القرآن الكريم في نشأة الدرس البلاغي وتطوره

بقلم

**الباحث/ علي أحمد زواري** (*)

## ملخص

موضوعنا يتحدث عن تأثير القرآن الكريم في مسار البلاغة العربية، من بداية النشأة إلى أن تطور الدرس البلاغي وأصبح على ما هو عليه الآن من مباحث مختلفة، وتفريعات متفرقة، حتى ارتسمت معالم البلاغة العربية، وظهرت حدودها، ودونت وأصبحت في متناول الجميع، وقد تطرقنا فيه بداية إلى الخصائص التي تميزت بها لغة القرآن حتى أصبحت قبلة للباحثين الأوائل في مجالات عدة ومنها البحث البلاغي، كما أشرنا للأسباب والدوافع التي أدت للاعتناء بلغة القرآن والتوجه لدراسة بلاغته والتي كانت سببا مباشرا في نشوء الدرس البلاغي، ثم بعد كل هذا توقفنا عند أهم المحطات التي مرّ بها الدرس البلاغي من النشأة إلى التطور، مركزين على أثر القرآن الكريم في ذلك.

**الكلمات المفتاحية**: الدرس البلاغي، أثر القرآن الكريم، المباحث البلاغية، الفنون البلاغية.

(*) باحث في مرحلة الدكتوراه، التخصص: بلاغة وأسلوبية. و إمام أستاذ رئيسي بمديرية الشؤون الدينية والأوقاف – الوادي. وأستاذ متعاقد بمعهد العلوم الإسلامية، قسم الشريعة – جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي.
( soufislam@gmail.com)

## المقدمة

تعد دراسة المباحث البلاغية في القرآن الكريم من العناية الكبيرة في خدمة كتاب الله، لما لعلوم البلاغة من تعلق بتفسير كلام الله تعالى؛ فهي الوسيلة المثلى التي اعتمد عليها العلماء في بيان خصائص القرآن وتجلية أوجه العظمة فيه، وإظهار إعجازه وأسراره، بإبراز معانيه، وبيان مقاصده، والوقوف على منهجه القويم، والأساليب المثلى التي سلكها في مخاطبة المخاطَبين.

فقد استخدم القرآن الكريم العديد من الفنون البلاغية في تطرية نشاط السامعين وإيقاظهم بغية التأثير فيهم للوصول إلى أهدافه وتحقيق غاياته، فكان تعلم علوم البلاغة من أكبر الدوافع للتعامل مع القرآن الكريم، يقول السيوطي مبينا أهمية علوم البلاغة الثلاث (المعاني والبيان والبديع): «لأنه يعرف بالأول خواص تراكيب الكلام، من جهة إفادتها المعنى، وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان المفسر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز وإنما يدرك بهذه العلوم»[1].

ولكن هذه العلوم والمباحث البلاغية لم تكون معروفة على ما هي عليه أيام نزول القرآن الكريم، مع كونها منقدحة في الأذهان ومستعملة على الألسن، تفنن بها الشعراء، وتبارز بها الخطاء، وأبدع من خلالها الأدباء، فلما نزل القرآن الكريم، أحدث نوعا من التغير في هذا المسار، واتجه الدرس البلاغي من طور إلى طور آخر جديد من خلاله بدأ التبلور الحقيقي للدرس البلاغي، وعلى هذا كان موضوع دراستنا تحت عنوان: "أثر القرآن الكريم في نشأة الدرس البلاغي وتطوره".

ومما ذكرنا فإن إشكالية الموضوع تتمحور حول بيان التأثير الذي أحدثه القرآن الكريم في مسار البلاغة العربية، حتى تحولت من أساليب منقدحة في الأذهان،

وتستعمل في أفانين الكلام؛ إلى درس لغوي بلاغي منقسم لعلوم، وكل علم منقسم إلى مباحث مختلفة، وفي كل مبحث قد تجد تفريعات أخرى متفرقة، حتى ارتسمت معالم البلاغة العربية، وظهرت حدودها، ودونت وأصبحت في متناول الجميع.

وهذه الإشكالية يمكن أن نفرعها إلى أسئلة جزئية فرعية منها يمكن الإحاطة بجوانب الموضوع لتكتمل الصورة للقارئ في معرفة مدى ذلك الأثر الكبير الذي أحدثه القرآن الكريم في نشأة الدرس البلاغي وتطوره، ومن تلك الأسئلة، ما يلي:

ما هي الخصائص التي تميزت بها لغة القرآن حتى يكون قبلة للباحثين الأوائل؟

وما الأسباب الدافعة للاعتناء بلغة القرآن والتوجه لدراسة بلاغته؟

وما هي المحطات التي مرّ بها الدرس البلاغي من النشأة إلى التطور، وكيف كان أثر القرآن الكريم في ذلك؟.

وللإجابة عن هذه الأسئلة قصد الوصول للب الإشكال المطروح، فإننا وضعنا المطالب التالية:

المطلب الأول: الخطاب القرآني من حيث لغته وأسلوبه.

المطلب الثاني: الأسباب الدافعة للاعتناء بلغة القرآن ودراسة بلاغته.

المطلب الثالث: محطات الدرس البلاغي وأثر القرآن فيها.

ونبدأ الآن في تفصيل الموضوع بداية من المطلب الأول المتمثل في:

## المطلب الأول: الخطاب القرآني من حيث لغته وأسلوبه.

ونحن نتحدث عن أثر القرآن الكريم في نشأة الدرس البلاغي وتطوره؛ فإنه من اللازم علينا أن نتحدث ولو بشيء من التفصيل عن الخطاب القرآني من حيث لغته وما يتميز به أسلوبه، وهذا يعطينا الصورة العامة له، ويكون بمثابة التمهيد للحديث عن تطور الدرس البلاغي، وذلك لأهمية القرآن الكريم في بعث البلاغة العربية.

لا مرية أن للقرآن الكريم أسلوبه الذي تميز به بما فيه من خصائص فنية، وسمات بلاغية، ولطائف لغوية، وسلامة منطقية ، وبراعة تعبيرية ، ودقة تصويرية ، وروعة بيانية . يقول الزرقاني: «أسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه»[2].

ثم يقول : «ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم؛ بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها والفنون التي يعالجها»[3].

ولهذا أفاض العديد من الأدباء والبلغاء والعلماء في دراسة الأسلوب القرآني قصد بيان خصائصه وسماته ومميزاته المختلفة التي تبرهن على إعجازه وقوة بيانه، مثل الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن" ، والزرقاني في كتابه "مناهل العرفان"، والرافعي في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، وكتابه "تاريخ آداب العرب"، ومحمد عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم"، ومحمد أبو زهرة في كتابه "المعجزة الكبرى"، ومحمد بكر إسماعيل في كتابه "دراسات في علوم القرآن" وغيرهم ممن خصه بالحديث أو ضمنه في مؤلفه، ويمكن أن نلخص كل ذلك في ثلاثة نقاط أساسية لا يتسع المقام للتوسع فيها لكن هي محور ما تميز به أسلوب القرآن ولغته:

**1 – جمالية التعبير:**

القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وقد احتوى على أعذب الألفاظ العربية وأفصحها وأبلغها، مما تعرفه العرب وتداولته بينها، ولم يخرج من كل ذلك عن سننهم في الكلام لا لفظا ولا معنى، لا إفرادًا ولا تركيبًا، ومع ذلك وإن كانت تلك الألفاظ معهودة عندهم واستعملوها بينهم وجاءت على ألسنة شعرائهم؛ إلا أن القرآن الكريم

قد فاق وعلا جميع كلامهم وتحداهم بأقصر سورة منه رغم كونهم من أرباب الفصاحة والبيان، وما ذاك إلا لحسن سبكه وجودة رصفه وروعة تأليفه. قال الرماني : «فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة وتفوق الموزون الذي هو أحسن الكلام»[4].

يقول الزرقاني: «ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي وذاك النظام الصوتي أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية؛ كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى، وذلك أن من شأن الجمال اللغوي والنظام الصوتي أن يسترعي الأسماع ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم، وبذلك يبقى أبد الدهر سائدا على ألسنة الخلق وفي آذانهم ويعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقا لقوله سبحانه:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[5].»[6].

فـ«نظام القرآن الصوتي في ائتلاف حركاته وسكناته، ومدَّاته وغنَّاته، واتصالاته وسكتاته، أمر يبهر العقول، ويسترعي الأسماع ويستهوي النفوس، بصورة تختلف كل الاختلاف عَمَّا يجده المتذوق لكلام الناس من نسق وانسجام، فإنه مهما كان كلام البشر سهلًا جزلاً عذبًا، فإنه لا يخلو من قصور في المعنى، أو ثِقَلٍ في النطق، أو خَلَلٍ في الترتيب»[7].

و«إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة يشعر من نفسه ولو كان أعجميا لا يعرف العربية بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر؛ لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملها والطبع أن يمجها ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالبا وإن طالت على نمط يورث سامعه السأم والملل بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل لأنه يتنقل فيه دائما بين ألحان متنوعة وأنغام متجددة على أوضاع مختلفة يهز كل وضع منها أوتار القلوب وأعصاب

الأفئدة.

وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي هو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام سواء أكان مرسلا أم مسجوعا حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة لم يعرفوا شيئا قريبا منها إلا في الشعر ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا»[8].

**2 – دقة التصوير:**

فمن جمالية التعبير تكون دقة التصوير، وهو من السمات الأساسية البارزة للأسلوب القرآني في طريقة التعبير عن المعاني والأفكار والتصورات التي يريد إيصالها وإيضاحها للمخاطبين، سواء كانت معاني ذهنية مجردة، أو قصصاً غابرة، أو مشاهد ليوم القيامة وغيرها من المجالات.

إن الأسلوب القرآني يجسد المعنى الذي يُرَاد إيضاحه للمتلقي في قالب من الصور البيانية تجعلها كأنها مجسّمة منظورة بين ناظريه، فينظر القارئ في تفصيلات الصورة، وكأن المشهد يجري بين عينيه حيّاً متحرّكاً، فتكون أقرب إلى الفهم وأوضح في الذهن مما لو نقل المعنى مجرّداً من تلك الصور الحيّة . يقول محمد بكر إسماعيل : «فالقرآن الكريم يبرز المعاني المعقولة في صور محسنة منتزَعَة من الواقع المشاهَد، مؤتلفة ائتلافًا عجيبًا في قوالب كلية متحركة، تشعر فيها بالأصوات والألوان والحركات، مما يجعلك تعيش مع الواقع الذي تصوره لك هذه التشبيهات والاستعارات والكنايات، المسبوكة سبكًا فريدًا يأخذ بمجامع القلوب، ويملك على الإنسان حسَّه ومشاعره، فلا يحتاج إلى مزيد تصوير للحقائق التي يذكرها القرآن في ثنايا هذه اللوحات البارعة البديعة في عناصرها، وائتلافها وانسجامها مع معانيها ومراميها.

إنها تشبيهات واستعارات وكنايات حيوية، تستمد حيوتها من الطبيعة في أسمى

مظاهرها وأبهج مناظرها .. ومن سماته التي اكتشفوها بالاستقراء والتتبُّع لهذه الصور البيانية أنها تصوِّر الغائب حتى يصبح حاضرًا، وتقرِّب البعيد النائي حتى يصير قريبًا دانيًا. ومن سماتها إنها تتغلغل في النفس البشرية حتى تصير جزءًا من كيانها الروحي.

ومن سماتها أيضًا التلوين في التشبيهات، فكثيرًا ما يكون المشبَّه واحدًا والمشبَّه به شيئان فأكثر، تثبيتًا للمعاني المرادة، وتعميقًا لآثارها في النفس . ومن ذلك ما شبَّه الله به حال المنافقين في سورة البقرة ، بقوله جل شأنه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ، أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ، يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[9].

والتشبيه الأول ناري والثاني مائي، والمشبَّه فيهما المنافقون، والمشبَّه به أمور كثيرة مؤتلفة لا ينفك بعضها عن بعض، والصور فيهما كلية متزاحمة في نسق فريد، لإبراز أحوال هؤلاء المنافقين إبرازًا لا تخفى معه حقيقة من حقائقهم، ولا خفيَّة من خفاياهم، فقد أخرجت لنا ما كان يدور في خلجات نفوسهم من شرٍّ أرادوا به المسلمين، وما كانت تنطوي عليه ضمائرهم من خبث ومكر ودهاء، وكشف لنا بجلاء عن عاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة. فهي في إدعائهم الإيمان كمن أوقد لنفسه نارًا لينتفع بها، وفي إخفائهم الكفر يكون مثلهم كمثل من لم ينتفع بالنار التي أوقدها، أو أوقدت له، فالمنافقون قد أظهروا الإيمان حمايةً لأنفسهم وأموالهم، ولتكون لهم مثل ما للمؤمنين من الحقوق العامة في الغنيمة، والزكاة، وغيرها . لكنهم بكفرهم الذي أخفَوْه فأظهره الله في محكَم آياته فقدوا الانتفاع والتمتُّع بهذه الحقوق الدنيوية، وفقدوا أيضًا ثواب الآخرة، وحُرِمُوا نور الله الذي أوقدته في قلوبهم فطرة الله التي فطرهم

عليها، وأوقده لهم نبيهم بما كان يتلوه عليهم من قرآن . وهم في تخوّفهم من أن يفتضح أمرهم، واحتيالهم في إخفاء كفرهم، وإفسادهم في الأرض، ومداهنتهم المؤمنين تارة، وطاعتهم لشياطينهم من الجن والإنس تارة أخرى؛ كمثل أهل الصيب الذين يكونون في أمسِّ الحاجة إليه، فينزل عليهم مصحوبًا برعد وبرق، وظلمات بعضها فوق بعض، فهم يطمعون في الغيث، ولكنهم يخشون مايصحبه من رعد وبرق وظلمة، يحاولون أن يتجاهلوه بوضع أناملهم في آذانهم توقيًا من الموت فزعًا وهلعًا، ولكن دون جدوى، فالله محيط بهم وبأمثالهم.

ومثلهم في ترددهم في شأن الإيمان، وحيرتهم بين إرضاء إخوانهم من اليهود والمشركين، لنَيْل ما في أيدي كليهما من المنافع العاجلة، مثلهم في ذلك كمثل من يمشي في ظلمة حالكة، لا يبصر تحت قدميه شيئًا، فيبرق البرق، فيمشي على ضوئه هنيهة، فإذا ذهب البرق -وسرعان ما يذهب- وقف كما هو، لا يقدِّمُ رجلًا ولا يؤخِّر أخرى، فقد بلغ به الأمر أقصى درجات الخطر، فأفقده القدرة على مجرد التفكير في الذهاب والإياب .

وفي هذين المثلين وجوه من التشبيه لا تكاد تنحصر، فهي تختلف بحسب حال الممثَّل له في جميع مواطنه وشتَّى عصوره، بحيث لو أُجْرِيَّ كُلُّ مثلٍ من هذين المثلين على قوم من المنافقين في أي عصر، وفي أي مكان، لطابق المشبَّه المشبَّه به، وطابق الاسم المسَمَّى.

ومن عجيب أمر الأمثال في القرآن الكريم أنها تخلو من المبالغات التي تخرِجُ الكلام عن المعاني المرادة إلى جوٍّ من الخيال المفرِط، الذي يؤدي إلى تشتت الأذهان، وذهاب الحقائق وخلوِّ الأسلوب عن الإقناع العقلي، وإن صحبه شيء من الإمتاع العاطفي.

لهذا كانت تشبيهات القرآن، وأمثاله صورًا حية تعبِّر عن الواقع، لا تعدوه إلى غيره، ومع ذلك تجدها لا تخلو من الإمتاع العاطفي، والتأثير الوجداني، بما اشتملت عليه من

ألوان المعاني والبيان والبديع، الذي يخلو تمامًا من التكلُّف والتعسف ، مع رقَّةٍ في النظم والحواشي والفواصل، كانت ولا تزال زادًا للبلغاء والأدباء، ومتعة عظيمة لكل ذوَّاقة لفنون الكلام البليغ في أسمى صوره، وأبهى معانيه . . .

وهكذا نجد العلماء في كل زمانٍ ومكانٍ يحلِّقون في سماء القرآن لاستنباط معانيه من خلال مبانيه، ويبحثون في جِدٍّ عن لطائفه البلاغية، ودقائقه اللغوية، ليقفوا من وراء ذلك كله على معانيه ومراميه بقدر طاقتهم البشرية . لكنهم لا يحصلون منه إلّا غرفة من بحر، أو رشفة من غيث، فهو كتاب الله القويم، وحبله المتين ونوره المبين»[10].

وبهاتين الخاصيتين يكتسب أسلوب القرآن الخاصية الموالية، والتي هي:

**3 – قوة التأثير:**

الأسلوب «القرآني يميل إلى قوة التأثير بجميع الوسائل الفنية»[11]، وذلك مدعاة بالضرورة إلى التأثير في الإنسان لأنه المستهدف الأول في الخطاب القرآني، وهكذا رأيناه مع جمالية التعبير من حيث جودة المعنى وحسن التركيب وبراعة التوظيف مع قوة الإيقاع، إلى أن وصلنا لدقة التصوير، وما يحمله من لوحات فنية تخاطب كل كيان الإنسان في صورة حيّة مشرقة.

فالصورة البيانية للأسلوب القرآني تبعث في النظم قوة التأثير بنفوذها إلى الذهن وتسربها منه عبر أغوار العقل إلى أعماق القلب، لتلامس مشاعر الإنسان بمؤثراتها القوية الفاعلة، حتى تصل تلك الصورة إلى محاصرة الإنسان من كل مشاعره؛ الجسدية والنفسية والفكرية والوجدانية.

وبالرغم من «أنّ الذهن منفذ من منافذ المعنى، ولكنّه ليس المنفذ الوحيد له، فالإيقاع يشترك مع الذهن في توصيل المعنى ويزيد عليه في قوة التأثير في النفس»[12]، وهكذا يجمع القرآن في أسلوبه التأثيري بين وسائل التعبير ووسائل التصوير، «ولا

تعجب من هذا القول، فإنك لو تهيَّأت لتلاوته أو سماعه بقلب مفتوح مجرَّد عن الشهوات والشبهات لسبق قلبك إلى تلاوته لسانك، وسبق إلى سماعه أذنيك ، ومن ذاق عرف»[13].

يقول الزرقاني في الخاصية الثانية للأسلوب القرآني وهو يبيّن قوة التأثير فيه: «إرضاؤه العامة والخاصة، ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم ، وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قرئ عليهم أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام لا في إشراق ديباجته ولا في امتلائه وثروته ولا كذلك كلام البشر فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة لم يرض العامة لأنهم لا يفهمونه وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة لم يرض الخاصة لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم»[14].

ويقول في الخاصية الثالثة : «إرضاؤه العقل والعاطفة ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معا ويجمع الحق والجمال معا انظر إليه مثلا وهو في معمعان الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريها كيف يسوق استدلاله سوقا يهز القلوب هزا ويمتع العاطفة إمتاعا بما جاء في طي هذه الأدلة المسكتة المقنعة إذ قال الله سبحانه في سورة فصلت : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[15] ، وإذ قال في سورة ق: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ، رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً

مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[16] ، تأمل في الأسلوب البارع الذي أقنع العقل وأمتع العاطفة في آن واحد حتى في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل إذ قال في الآية الأولى إن الذي أحياها لمحي الموتى وفي الآيات الأخيرة كذلك الخروج ، يا للجمال الساحر ويا للإعجاز الباهر الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا بأنصع الأدلة وأمتع المعروضات في هذه الكلمات المعدودات!»[17].

وهذا ما جعل الدراسات اللغوية تتوجه للعناية بالقرآن الكريم، وفي العنصر الموالي نذكر أهم الأسباب الدافعة للاعتناء بهذه اللغة التي انبثق منها نشأة العديد من العلوم، ومنها علوم البلاغة.

**المطلب الثاني : الأسباب الدافعة للإعتناء بلغة القرآن ودراسة بلاغته.**

لا ريب أن هناك أسباب كثيرة دفعت للاعتناء بلغة القرآن وأسلوبه، ولكن نذكر سببين فقط لتعلقهما بموضوعنا، وهما:

**1 – شيوع اللحن في المفردات والأساليب:**

اللحن: «وهو الخطأ في العربية الفصحى، ويشمل ذلك الخطأ في الأصوات، أو في الصيغ أو في تركيب الجملة وحركات الإعراب، أو في دلالة الألفاظ»[18].

كانت العرب تنطق على سجيتها، وبما توحي إليها سليقتها، لا تتعثر ألسنتها في خطأ، ولا يشوب صفو كلامها لحن، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن بلغة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، اشتدت العناية أكثر باللغة العربية وتوجه الناس لها، وما أن انتشر الإسلام، وكثرت الفتوحات، وخالط العرب العجم حتى فسدت السليقة العربية، وبدأ اللحن يدبّ إلى الألسنة، وشمل هذا اللحن المفردات والأساليب، فجلس المؤدبون والمعلمون يدرسون اللغة العربية وآدابها وفنونها فزادت العناية بها لما حصل في اللسان العربي من اللحن، وهذا يؤكد أهمية تعلم اللغة العربية والعناية بها

وبآدابها لما ينعكس على صاحبها من فصاحة اللسان، وبلاغة البيان وحسن وتركيب الكلام، فضلاً عن فهم الدين وجمال الخلق.

يقول أبو بكر الزُبيديّ: «ولم تزل العرب تنطق على سجيَّتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها؛ حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجًا، وأقبلوا إليه أرسالًا، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة، واللغات المختلفة، ففشا الفساد في اللغة والعربية، واستبان منه في الإعراب الذي هو حَلْيها، والموضِّح لمعانيها؛ فتفطَّن لذلك مَن نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارَف من كلام العرب، فعظم الإشفاق من فُشُوِّ ذلك وغلَبته؛ حتى دعاهم الحذرُ من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم، إلى أن سبَّبوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه، وتثقيفها لمن زاغت عنه»[19].

ولذلك كان العلماء يتحرزون عند جمع اللغة، ويفضلون بعض القبائل على بعض، وأكثر القبائل العربية التي نقل عنها، وأخذت العربية الصحيحة منها هم: قيس، وتميم، وأسد، وهذيل، وبعض قبائل كنانة، وبعض الطائيين. واستبعدت قبائل: حمير، ولخم، وجذام، وقضاعة، وغسان، وإياد، وثقيف، وبني حنيفة، وعبد قيس؛ وذلك بسبب تسرب الخطأ إليهم، لقربهم من الأعاجم، ومخالطتهم لهم.

يقول عبد الله الجديع: «وعلوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة علوم اصطلاحية، قننها الناس لما رأوا الضرورة داعية إليها، لعصمة اللسان من اللحن في كلام الله وكلام نبيه – صلى الله عليه وسلم –، وعصمة الفكر من الشطط في الفهم، وذلك لأن الله تعالى قد أنزل الكتاب عربيا، جرى نظمه وتأليفه على نهج لسان العرب، بتراكيبهم وألفاظهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[20] ، وقال: ﴿قُرْآنًا

عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[21] ، فتلاوة الكتاب طريق فهمه وعقله، فمن وقع في اللحن في تلاوته فلم يقرأه عربيا كما أنزل، ومن ثم فربما أوقعه ذلك في خطأ الفهم بسبب لحنه في اللفظ، بل ربما أوقعه في الخطأ على ربه تبارك وتعالى.

وإن العجمة حين شاعت في الناس؛ أوجب ذلك أن يصير العلماء إلى تقنين الضوابط لتستقيم الألسن بتلاوة القرآن، وهذا أصل ما قصدوه، لكنها صارت قوانين عامة للغة العرب، مطلوبة في كل كلام عربي، إذ قبح اللحن في كل كلام قد يترتب عليه ضرر كبير، فإن الناس إنما يظهرون مرادهم باللغات، فإذا اختلت اللغة فسد الكلام ولم يدرك المراد.

من هنا تأتي أهمية معرفة علوم العربية، لنقرأ القران كما أنزله الله على محمد – صلى الله عليه وسلم –، ولنقرأ الحديث عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على وجهه، ولنفهم كلام أهل العلم على مرادهم، ونحسن الإبانة عما نريد في خطبة أو حديث أو كلام مكتوب على الوجه»[22].

فقد كان الغرض من نشأة علم النحو هو وقاية اللسان من اللحن والخطأ، ولذا جعلوا منه العلم الذي تعرف به أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً، وكان الغرض من نشأة علم البلاغة هو انتحاء سمت كلام العرب في تصاريفه وأساليبه، وبالتالي يمكن أن نوجز العوامل الّتي أدَّت إلى نشأة الدَّرس اللُّغوي عموما والبلاغي على وجه الخصوص في ثلاثة عوامل، وهي:

أ– ظهور اللحن وانتشاره.

ب– حماية القرآن من اللحن.

ج– فهم القرآن ودرسه.

## 2 – خدمة القرآن الكريم وبيان أسراره

كل من درس علوم اللغة وعرف مراحل نشأتها وتطورها لا يخفى عليه أهمية البلاغة القرآنية، لما لعلوم البلاغة من تعلق بتفسير كلام الله تعالى؛ فهي الوسيلة المثلى التي اعتمد عليها العلماء في بيان خصائص البلاغة القرآنية، وإظهار وجه الإعجاز، ولذلك كانت علوم البلاغة وخاصة علمي المعاني والبيان يطلق عليهما علم دلائل الإعجاز، مع أن البلاغة القرآنية يتساوى فيها ألوان البديع وفنون المعاني والبيان، فبلاغة القرآن تشمل كل هذه الفنون والألوان .

فكان تعلم البلاغة من أكبر الدوافع لتدبر القرآن وتعلمه، وفهمه وإدراك معانيه، وتجلية درره واستخراج كنوزه، وبهذا ندرك السر الذي كان وراء الاهتمام ببلاغة القرآن، والحكمة من الحث على تعلم البلاغة، وخاصة لمن يتعامل مع القرآن الكريم، تفسيرا كان أو غيره .

يقول الجاحظ مبينا أهمية البلاغة : «فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز على أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوّة لحييه لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة»[23] .

ويقول السكاكي مبرزا أهمية علمي المعاني والبيان: «واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة،

ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين»[24].

فأرباب البلاغة هم من يمتلك الذوق الناقد، وبه يعرفون أفانين الكلام وخباياه، لما امتلكوه من قوة المران في علوم البلاغة حتى صارت لهم بذلك دربة، وتكونت عندهم الملكة، وهذا ما أشار إليه الزمخشري، بقوله :«ومن حق مفسر كتاب اللّه الباهر وكلامه المعجز، أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه ، والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدّى سليما من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل»[25].

ويقول الزركشي: «وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر وصارت لهم بذلك دربة وملكة تامة، فإلى أولئك ينبغي أن يرجع في معرفة الكلام، وفضل بعضه على بعض»[26].

وقد أشار السيوطي لهذا المعنى، فقال : «معرفة هذه الصناعة بأوضاعها (الذوق والملكة) هي عمدة التفسير المطلع على عجائب كلام الله تعالى، وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة»[27].

فهكذا نرى من خلال ما ذكرنا هذا الاهتمام الكبير بتعلم علوم البلاغة، والتمرن على فنونها المختلفة، وذلك قصد الغوص في تفسير القرآن الكريم ومعرفة معانيه واستخراج كنوزه والوقوف عند درره، وهذا الاهتمام كان سببا في كثرة الدراسات وتنوعها في هذا المجال، ومنها الدراسات البلاغية، التي كانت النواة الأساسية في نشأة علم البلاغة وتطوره، وعليه حاولت أن أستقري تلك الدراسات ثم تصنيفها إلى أقسام، حتى نصل إلى بيان محطات الدرس البلاغي المختلفة، وأثر القرآن فيها، وإعطاء صورة عنها، وتحديد مجالها، وإبراز ما يمكن أن تتطرق إليه فيها، ويمكن الآن أن ندخل في هذه المحطات.

**المطلب الثالث: محطات الدرس البلاغي وأثر القرآن فيها.**

هناك أربع محطات رئيسية قديما وحديثا، هي:

**1. البحث في دلائل الإعجاز القرآني**

عندما نرجع لتاريخ نشأة البلاغة نجد أن السبب الأساس في ذلك هو القرآن الكريم، وذلك عندما انبرى علماء الأمة للدفاع عنه، وحمايته من اللحن والانحراف، وبيان وجوه إعجازه، وتجلية جوانب الاختلاف بينه وبين المعهود من كلام العرب الذي خلدته أشعارهم، وبذلك اتجه البلغاء والعلماء لتأليف المؤلفات والكتب والمصنفات الكفيلة بتجلية أوجه البلاغة القرآنية قصد بيان إعجاز القرآن، ونذكر من ذلك:

معاني القرآن للفراء (ت:207ه) ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة (ت:210ه) ، ونظم القرآن للجاحظ (ت:255ه)، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت:276ه)، والنكت في إعجاز القرآن للرماني (ت:384ه)، وإعجاز القرآن للباقلاني (ت:403ه)، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ت:471ه)، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي (ت:606ه)، ثم مفتاح العلوم للسكاكي (ت:626ه)، والتبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزملكاني (ت:651ه)، وتلخيص المفتاح للخطيب القزويني (ت:739ه)، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي (ت:749ه)، والفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان لابن القيم (ت:751ه)، وغير ذلك من المؤلفات البلاغية التي كان منطلقها الأساس هو الإعجاز القرآني وجعلت من البلاغة مادة خصبة لدراستها وبيان وجه إعجاز القرآن وعظمته.

وبهذه المؤلفات في إعجاز القرآن ظهرت المباحث الكثيرة المختصة بالفنون البلاغية التي استخلصوها من القرآن الكريم، مثل: الخبر والإنشاء، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والشرط والجزاء، والقَصْر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، وغيرها من أساليب المعاني، وفنون البيان، وألوان البديع، ما يدل على العلاقة التلازمية بين فنون البلاغة المختلفة وقضية الإعجاز القرآني.

يقول الرافعي في بيان وجه الارتباط بين الفنون البلاغية والتصنيف في الإعجاز القرآني: «وممن ألَّفوا في الإعجاز أيضاً على وجوه مختلفة من البلاغة والكلام وما إليهما : الإمام الخطابي المتوفى سنة 388هـ ، وفخر الدين الرازي المتوفى سنة 606هـ ، والأديب البليغ ابن أبي الإصبع المتوفى سنة 654هـ ، والزملكاني المتوفى سنة 727هـ ، وهي كتب بعضها من بعض»[28].

ثم يقول: «صنف فيه جماعة من العلماء المتأخرين : منهم الإمام الرازي المتوفى سنة 606هـ ، فقد لخص كتابي (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) للجُرجاني، واستخرج منهما كتابه في إعجاز القرآن وهو كتاب معروف، أحسن في نسقه وتبويبه، ثم الأديب ابن أبي الإصبع المتوفى سنة 654هـ فقد صنف كتاب (بدائع القرآن) أورد فيه نحو مائة نوع من معاني البلاغة وشرحها، واستخرج أمثلتها من القرآن، ثم ابن قيم الجوزية المتوفى سنة 751هـ ، وقد أشرنا في غير هذا الموضع إلى تصنيفه "كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان " وهو في معناه بتلك الكتب كلها.

هذا إلى أن كل ما كتبه المتقدمون في علوم البلاغة وإعجاز القرآن: كالرماني، والواسطي، والعسكري، والجرجاني، وغيرهم؛ فإنما يَنحون به هذا النحوَ من انتزاع أمثلته في القرآن، والإضافة في أبوابها، ثم ما يداخل هذه الأبواب من فنون الكلام شعرِه ونثرِه، ومن أجل ذلك قلنا آنفاً: إن القرآن كان علم البلاغة عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم»[29].

ونجد من المعاصرين من اهتم بهذه المسألة وألف فيها مصنفا خاصا هدفه الحديث عن بيان مدى إثراء تلك المصنفات للبلاغة القرآنية ما أدى لتدوين البلاغة العربية عموما، من ذلك كتاب: قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية لعبد العزيز عبد المعطي عرفة، يقول فيه عن جهود أبي عبيدة بحكم أنها من أوائل الجهود التي عرفت في هذا المجال : «وكانت محاولة أبي عبيدة ناجحة إذ تمكن من الكشف عن بعض المسائل البلاغية، وتعتبر مهمة في تكوين البلاغة التعليمية، لأنها تمثل الطور الأول في نشأتها»[30].

ويقول بعدما بين الفنون البلاغية التي تعرض لها كل من أبي عبيدة والفراء في بيان أوجه الإعجاز القرآني: «هذه هي الألوان البلاغية التي أشار إليها كل من أبي عبيدة والفراء والتي دفعتها قضية الإعجاز دفعا وكان الغرض منها فهم القرآن الكريم عن طريق تربية الذوق الأدبي ... »[31].

وهكذا سار مع باقي من ألف في الإعجاز القرآني وخدم البلاغة تماشيا مع عصورهم، مثل: الجاحظ، وابن قتيبة، وابن المعتز، والرماني، وأبي هلال العسكري، وعبد القاهر الجرجاني، والزمخشري الذي طبق في كشافه ما قال به الجرجاني.

ومع كل هذا الاهتمام بالبلاغة القرآنية نستطيع القول بأن الهدف لم يكن من أجل استخراج فنون البلاغة القرآنية وتنظيميها وترتيبها؛ بل كان المقصد هو بيان الإعجاز والدفاع عن القرآن ولغته عن طريق فنون البلاغة المختلفة، لأنها تخدم الإعجاز أولا وبدرجة رئيسية، ولم يكن في صلب منهجهم التأليف في البلاغة ذاتها، ولكن استعملوها كآلة لإظهار وجوه الإعجاز، وعناوين المصنفات التي رأيناها تدل على ذلك، ومع ذلك فقد صارت تلك الجهود مادة خاما للفنون البلاغة بعد ذلك، وأصبح كل من جاء بعدها عالة عليها، ولا يمكنه الاستغناء عنها، وبهذا تبلورت

فكرة المصنفات المختلفة المتخصصة في علوم البلاغة، وهذا ما سنتحدث عنه في العنصر الموالي.

### 2. البحث البلاغي المتخصص

لقد كان للقرآن الكريم أثره الواضح في البحث البلاغي المتخصص؛ وذلك من وجهتين:

الأولى: أن ما أُلِف في البلاغة قديما وحديثا، حوى جهود العلماء في استقصاء فنونها وعلومها التي كان العديد منها -كما ذكرنا- مستخلصا من القرآن الكريم.

وهي بحوث كثيرة نذكر بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر:

بداية من البديع لعبد الله بن محمد المعتز بالله (المتوفى: 296هـ)، وديوان المعاني للعسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، وسحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي (المتوفى: 429هـ)، وسر الفصاحة للخفاجي (المتوفى: 466هـ)، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (المتوفى: 471هـ)، وأساس البلاغة للزمخشري (المتوفى: 538هـ)، ومفتاح العلوم للسكاكي (المتوفى: 626هـ)، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني (المتوفى: 684هـ)، والإيضاح في علوم البلاغة، وعقود الجمان في علم المعاني والبيان كلاهما للقزويني، (المتوفى: 739هـ)، والطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلويّ (المتوفى: 745هـ)،

ومن الكتب المتأخرة، أنوار الربيع في أنواع البديع للحسيني (المتوفى: 1119هـ)، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي (المتوفى: 1362هـ)، وعلوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» للمراغي (المتوفى: 1371هـ)و، كتاب في البلاغة العربية (علم المعاني والبيان والبديع) لعبد العزيز عتيق (المتوفى: 1396 هـ)، وكتاب

البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ت:1425هـ)، وغيرها من الكتب.

فعندما نلقي نظرة على تلك المؤلفات المتخصصة في علوم البلاغة؛ ونتبع تسلسلها الزمني نجدها، تضمنت الحديث عن المباحث البلاغية، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه على صبغتها الحالية المشكلة لعلوم البلاغة الثلاثة، فجمعت شتاتها، واستقرت على تسمياتها، ورتبت علومها، وفرعت فنونها، وبوبت أقسامها، وبينت حدودها وتعريفاتها، ونجدها في كل ذلك احتوت كل المباحث التي استخلصت من القرآن الكريم.

الثانية: أن القرآن الكريم كان مادة مُثلى للتدليل على الكثير من المباحث البلاغية والاستشهاد لها، وبيان أغراضها ونكتها، حتى أضحت معروفة ومعلومة ومتداولة، وتتلقاها الأجيال خلفا عن سلف.

فالناظر للفنون البلاغية من خلال تلك المؤلفات البلاغية المتخصصة يلحظ اهتمامها بالاستشهاد لها بمختلف الشواهد من الشعر والنثر والقرآن وغير ذلك، فكانت كتب الإعجاز المختلفة – التي تحدثنا عنها وغيرها – مصدرا من مصادر البلاغة؛ من حيث أخذ الفنون عنها أو الاستشهاد بها، كما أن الشعر مصدر أساسي لفنونها – أيضا – ولذا لا نجدها تجعل من اهتماماتها الأولية البلاغة القرآنية، وإن كانت من صلب مادتها ومن أهم مصادرها؛ بل اهتمامها منصب حول علوم البلاغة وما تحتويه من فنون مختلفة، فذاك هو الغرض الأساس، وعليه أصبحت المادة القرآنية فيها كجزء من تلك الشواهد وكمصدر من المصادر، حسب ما اقتضاه كل فن، وتختلف من مصنف لآخر، فهناك المكثر، وهناك المقل في ذكر الشواهد القرآنية، وبهذا لا تجد في بعض فنون البلاغة إلا الشواهد الشعرية أو النثرية، وبالتالي يظهر مدى أثر

القرآن الكريم في نشأة الدرس البلاغي وتطوره من خلال ما عرضنا، ولا يمكن أن نذكر نشأة البلاغة تدون الإشارة للقرآن الكريم.

وللتنبيه فإننا لم نخصص للكتب الأدبية كلاما مستقلا، مثل البيان والتبيين للجاحظ، والمثل السائر لابن الأثير والكليات لأبي البقاء، وغيرها، وذلك لأنها ليست متخصصة في البلاغة القرآنية، وليس لها علاقة كبيرة بها، وإن ذكرت من أمثلتها، فهي موسوعات شاملة في الأدب والبلاغة، وخصصنا بعض الحديث للكتب البلاغية لأنها جعلت من صميم أمثلتها الشواهد القرآنية مع أن الكثير من مباحثها بني أساسا على النماذج القرآنية، ثم مع كل هذا فالكتب البلاغية المتخصصة هي صورة وهيكل الفنون البلاغية.

### 3. تفسير القرآن العظيم

كما سبق وأن أشرنا بأن البلاغة من العلوم التي نشأت وترعرعت في ضلال الدراسات القرآنية لبيان وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وأول شيء؛ وأهم شيء يسعى له المفسر قبل تفسيره هو البحث عن دقائق المعاني، لأن وراء كل كلمة أو آية في القرآن الكريم معنى مستفاد، هو الركيزة في بناء الفهم المراد من كلام الله تعالى، وما ينتج عنه من إعجاز ودلائل وأحكام وغيرها، لذا كانت فنون البلاغة ركيزة من ركائز علم التفسير لاهتمامها بالمعنى، الذي هو المراد تبليغه وتوصيله للمخاطب، يقول ابن الأثير : «والكلام فيه وإن تضمن بلاغة، فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وإذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه؛ لأنه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، والمعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها»[32]

ومن هنا نرى بأن المفسرين منذ بداية التدوين في علم التفسير وهم يركزون وبعناية فائقة على الجانب البلاغي، لأنهم يدركون مدى الصلة الكبيرة بين علم التفسير وعلوم البلاغة، فالمفسر حتى يستطيع القيام بهذا الدور كان لازما عليه أن يحيط بفنون البلاغة ووجوهها المختلفة ليكشف عن أسرار الإعجاز، ويتمكن من توجيه الآيات وفق ما يمكن أن يفهم عنه كلام الله تعالى، فكانت فنون البلاغة في مقدمة العلوم التي لا يُسْتَغْنى عنها في تفسير كتاب الله تعالى، وإدراك فصاحته وبلاغته، يقول الزمخشري في تفسيره الكشاف: «ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة»[33].

وقد كُتِبَت العديد من الرسائل العلمية في دراسة البحث البلاغي عند المفسرين، من ذلك : البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري لرابح دوب، وهي رسالة دكتوراه من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسطنطينة، سنة : 1994، وأيضا رسالة عن : جهود المفسرين في البحث البلاغي (أبو عبيدة – الفراء – ابن قتيبة) لمنيرة محمد فاعور ، وهي رسالة لنيل درجة الماجستير، بدمشق سنة 1996، وغيرهما كثير، سواء أكانت عامة عند المفسرين، أو خاصة ببعضهم، ما ينبئ على الدور الكبير الذي قام به المفسرون في الإسهام في خدمة الدرس البلاغي.

ومن أهم كتب التفسير التي اهتمت واعتنت بالجانب البلاغي، تفسير الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن الواحدي (ت:468هـ)، وتفسير الكشاف المسمى: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم جار الله الزمخشري (ت:538هـ) ، فقد حوى الكثير من الفنون البلاغية، وساقها مع التفسير بكل روعة ودقة وجمال، قصد الاستعانة بها على فهم كلام المولى عز وجل .

وكذلك تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد ابن عطية الأندلسي (ت:542هـ)، والتفسير الكبير، والمسمى –أيضا- مفاتح الغيب لفخر الدين الرازي (ت:606هـ) ، وتفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي سعيد محمد الشيرازي البيضاوي (ت:685هـ) ، وتفسير التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت:741هـ).

ومن أهم التفاسير –أيضا- التي أولت الجانب البلاغي بالحديث الكثير؛ تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت:745هـ)؛ الذي تكلم فيه طويلا عن الجانب البلاغي وأعطاه عناية كبيرة، وكذلك تفسير التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد لأبي العباس البسيلي التونسي (ت:830هـ)، وتفسير أبي السعود (ت:982هـ)؛ المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وتفسير فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني (ت:1250هـ)، وتفسير محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي (ت:1332هـ)، ولا يمكن أن ننسى أو نغفل عن الموسوعة الضخمة المتمثلة في تفسير التحرير والتنوير، المسمى: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت:1393هـ)".

فكل هذه التفاسير كان لها القسط الأكبر من العناية بالفنون البلاغية والتركيز عليها، وغيرها ممن اهتم بالجانب البلاغي وجعله من صميم مادة تفسيره، مع العلم أن منهجية العرض في تلك التفاسير تماشت مع تفسير الآيات، فكانت البلاغة مدرجة ضمن التفسير ومختلطة معه، وهي الطريقة القديمة المعهودة عند المفسرين، ولكن بعض المتأخرين صار على النهج الموضوعي في التفسير، فأفرد البلاغة بعنصر مستقل أثناء تفسير الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد، ومن هؤلاء على سبيل المثال محمد علي الصابوني في تفسيره "صفوة التفاسير".

وتكمن فائدة هذه التفاسير من الجانب البلاغي، أنها:

**أولا:** تخصيصها للجانب البلاغي بعنصر مستقل في بداية أو نهاية تفسيرها لكل مقطع من المقاطع، مما يسهل عملية الاستقراء للفنون البلاغية التي تعرض لها التفسير، دون لبس أو غموض أو تخمين أو تأويل، فهي مقصودة في ذاتها ولذاتها.

**وثانيا:** أنها من أواخر التفاسير – فهي معاصر – ولذا كانت تسمياتها للفنون البلاغية بما استقرت عليه عند علماء البلاغة، إلا اليسير النادر الذي لا يعد، فقد كانت تسمياتها غير موجودة في الكتب المتأخرة للبلاغيين، وهذا الجانب يجعل من تلك الفنون مألوفة عند جماهير القراء.

**وثالثا :** أنها اعتمدت على أهم جهود السابقين في استظهار وبيان واستخراج الفنون البلاغية في الآيات القرآنية، ما يجعل منها بأن يكون شبه ملخص أو ثمرة أو زبدة لتلك الجهود، ويكون مغنيا لحد كبير عنها، وخاصة عند الأجيال المعاصرة التي أصبحت تحب التيسير، والعمل القاصد المختصر في غالب أمورها.

مع العلم بأن هذه الطريقة التي انتهجتها هذه التفاسير تساعد جمهرة من الناس، وخاصة من يتعاملون مع الآيات مباشرة، سواء في التأليف، أو في تدريس التفسير وغيره مما يتعلق بالقرآن، أو في الخطابة، أو في الاستشهاد، أو أثناء الاطلاع عن مفهوم أو معنى بعض الكلمات أو دلالة بعض الآيات، ولكنها لا تكون مساعدة لجمهرة أخرى من الناس؛ رغم تخصيصها وإفرادها للجانب البلاغي بعنصر مستقل بداية أو عقب كل مقطع تقوم بتفسيره، فيبقى هناك نوع من المشقة في البحث عن الأمثلة القرآنية للفنون البلاغية عندما نريد أن ندعم الفن بأمثلة أخرى من القرآن الكريم، وخاصة فيما لم تذكر له كتب البلاغة أمثلة من القرآن الكريم.

وعلى هذا فإن هذا الجانب يحتاج لدراسة أخرى تهتم بهذا الجانب الأخير، قصد تيسير الوصول للأمثلة البلاغية القرآنية، وبترتيب وتبويب الفنون البلاغية على ما هي عليه في كتب البلاغة المعاصرة، وعلى طريقة وتسميات ما استقرت عليه تلك الفنون في كتب البلاغة، وعند المتخصصين فيها، والرجوع إليها دون عناء أو كثير تعب، وهذا ما يجعل الموضوع من هذه الوجهة جديدا وغير مطروق؛ فيما علمت وبلغه جهدي المتواضع.

وأني لأطمح في المستقبل أن تكون هذه الفكرة نواة مشروع لعمل ضخم وكبير لجمع شتات البلاغة القرآنية من مختلف المصادر، وضمها إلى بعضها البعض، لتهذب وتنقح وتيسر وترتب وتبوب، بنفس النسق الذي ذكرناه، وتخرج للعيان بلغة العصر.

وعلى كل حال ومع هذه الفكرة الأخيرة التي ذكرتها - والتي تتعلق بالبلاغة القرآنية من خلال التفاسير– فلا بأس أن أنبه على أني قد عثرت على دراسة قريبة من فكرتي التي ذكرتها قبل قليل؛ وهي كتاب : دليل البلاغة القرآنية لمحمد بن سعد الدبل ، وهو أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد خرج من هذه الدراسة الجزء الأول فقط، تعلق بالفاتحة والبقرة وآل عمران، وقد نشرته مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، في طبعته الثانية، سنة : 1431ه . 2010م، وهذه الدراسة بمثابة معجم بلاغي للبلاغة القرآنية، ولكنها تختلف مع فكرتي في وجهة، وتتفق معها في وجهة أخر:

أما فيما تختلف فيه مع فكرتي ففي مسألة الطرح والمنهجية المتبعة، فهو سلك في طرحه سبيل المتأخرين من المفسرين بذكر المقطع من الآيات، ثم يستخرج منه ما أمكن من الفنون البلاغية، مع ميزة اختلفت عنهم وهي عرض فنون كل قسم من علوم البلاغة مع بعضه، ولكن دون ترتيبها على غرار ترتيب كتب البلاغة

للموضوعات، بل رتبها حسب ورودها في الآيات داخل كل قسم، أما فكرتي التي أتصورها فهي تعتمد على منهج علماء البلاغة في التقسيم والترتيب والتبويب، بجمع الأجزاء من الآيات من كل قسم على أساس أنها شواهد، وترتيبها مع فنونها البلاغية حسب ترتيب الكتب البلاغية المعاصرة، بذكر الفن البلاغي مع أمثلته، كما هو معروف في الدراسة الحديثة.

أما فيما تتفق فيه مع فكرتي ففي مسألة التخصيص، فهو يعتمد على كل المصادر التي تحدثت عن البلاغة القرآنية ويريد استقراءها واستقصاءها، ليجمع مدونة تكون بمثابة معجم ودليل لكل ما جاء في البلاغة القرآنية، وهو بهذا يكون عملا ضخما وطويل الأمد، يستغرق وقتا طويلا وأجزاء كثر، كما أشار هو لذلك في هذا الجزء؛ بأنه قد يبلغ هذا المصنف إلى عشرة أجزاء أو أكثر.

وننقل ما قاله بشأن ما ذكرنا، فيقول: «ولما كنت واحدا من المهتمين بالبحث عن جوانب البلاغة القرآنية، فقد استخرت الله وعزمت مستعينا بتوفيقه عز وجل على إعداد معجم للبلاغة القرآنية، أشبه بالموسوعة. يقوم على إحصاء الألوان البلاغية في الآيات القرآنية، بدءا بسورة الفاتحة، وختما بسورة الناس، راجيا من الله تعالى أن يوفقني ويعينني على إتمام هذا العمل الكبير، ويقوم منهج هذه الدراسة على ذكر الألوان البلاغية التي تشتمل عليها آيات القرآن الكريم طبقا للمسميات التي استقر عليها علماء البلاغة. حيث أقوم باستعراض آيات الذكر الحكيم بحسب ترتيبها في المصحف الشريف آية آية ذاكرا ما في كل آية من خصائص علم المعاني، ثم اتبع ذلك ما اشتملت عليه من صور علم البيان، يلي ذلك ما يكون فيها من محسنات البديع المعنوية واللفظية، مستعينا في ذلك بتوفيق الله أولا، ثم بجهود المفسرين والبلاغيين والباحثين الذين اهتموا بإبراز جوانب البلاغية القرآنية ثانيا. هذا هو المنهج الذي

تحاول هذه الدراسة أن تسير على طريقته دون إغفال للمنهج التحليلي الذي قد يقتضيه المقام أحيانا»[34].

وبهذا اتضح لنا أن هذه الدراسة تشترك مع فكرتي من حيث الفكرة العامة، في جمع البلاغة القرآنية في مؤلف واحد، وتختلف معها من حيث الطرح والمنهجية، وسوف ننتقل الآن للعنصر الرابع والأخير المتعلق الدراسات في البلاغة القرآنية لنبين كيف كان لها أثر في إثراء الدرس البلاغي.

### 4. الدراسات في البلاغة القرآنية

ونقصد بها الدراسات والمؤلفات التي ركزت على البلاغة القرآنية، واعتنت بها، وقصدتها بالدراسة، وتنقسم هذه الدراسات لقسمين في نوعية الدراسة:

– إما إجمالا قصد بيان سيماتها، وخصائصها، وقيمتها، وجمالية بيانها، وروعة بلاغتها، وغير ذلك، وبعض هذه الدراسات يكون غير مقيد بكتاب في الدراسة، فيكون عاما في عموم بلاغة القرآن، مثل كتاب : من بلاغة القرآن لأحمد أحمد بدوي (ت:1384هـ)؛ ومثل كتاب خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (ت:1429هـ) ، وغيرهما.

– أو مقيدا؛ فبعضها يكون مقيدا بكتاب معين، فتكون الدراسة حينها قصد بيان جهود أصحابها أو أثرها، أو لإبرازها واستخلاصها لتفرد عن الكتاب، وما شابه ذلك، مثل : كتاب البلاغة والمعنى في النص القرآني تفسير أبي السعود أنموذجاً لحامد عبد الهادي حسين، ومثل : الطاهر بن عاشور وجهوده البلاغية في ضوء تفسيره التحرير والتنوير، لرانية جهاد إسماعيل الشوبكي، وهي رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في البلاغة القرآنية، بجامعة غزة (1430هـ . 2009م)، وكتاب البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية لمحمد حسنين أبي موسى،

ومثلها وعلى منوالها رسالة البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني لمحمود سليمان أحمد مسمح، وهي رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في البلاغة القرآنية، بجامعة غزة (1428هـ . 2008م)، وغيرها من الدراسات العامة للبلاغة القرآنية، فهي تتعرض بالضرورة للفنون البلاغية، لكنها لا تقصد تخصيصها في ذاتها بالدراسة؛ بل هي تبع لغرض آخر.

– أو تخصيصا كدراسة فن بلاغي معين إما في القرآن كله، أو في جزء منه، كدراسة الأمر والنهي، أو الاستفهام، أو التقديم والتأخير، أو التكرار، أو التشبيه، أو الاستعارة، أو الكناية، أو المقابلة، أو الإيجاز والإطناب، وغيرها من فنون البلاغة، وقد أصبحت هذه النوعية من الدراسة كثيرة اليوم مع الرسائل العلمية المتخصصة لنيل شهادة الماجستير أو الماستر أو الدكتوراه، ولا يتسع الأمر لذكر نماذج منها.

## الخاتمة

وفي خاتمة البحث يمكن أن نلخص النتائج التي توصلنا لها فيما يلي:

– أن القرآن الكريم كان المنعرج الأساسي الذي غير مسار الدرس اللغوي من مجرد خطاب على الألسن إلى مباحث تتداول بين أهل العلم، ومن علم منقدح في الأذهان إلى علم مكتوب ومدون بالأقلام، وذلك حين نزل القرآن الكريم وتوجه الناس للغته التي كانت على أساليب العرب، ولكنها أعجزتهم وأبهرتهم حتى جعلوها المصدر الأول لمادتهم بعد أن كان يتصدرها الشعر.

– شيئان أثريا الدرس اللغوي عموما والبلاغي خصوصا، وجعلا الجهود تنصب لدراسة اللغة القرآنية، هما شيوع اللحن في الكلمات وأسلوب الكلام وتراكيبه، وإظهار مواطن الإعجاز في القرآن الكريم، والفرق بينه وبين سائر كلام العرب في السمو والجمال، بحكم أن القرآن معجزة في ذاته تحدى الله به العرب.

– لقد كان تأثير القرآن الكريم في الدرس البلاغي واضحا حين اتجه العلماء لبيان المباحث البلاغية لإظهار فصاحة القرآن ومواطن الإعجاز فيه ما جعل الدرس البلاغي ينحو نحو النشأة والتبلور، ومع مرور الوقت واستجلاء عدد أكبر من المباحث وتأثر الناس بأساليب القرآن والافتتان بها حتى بلغت حد التكلف والصنعة ما فرض على العلماء لتدوين الفنون البلاغية لتكون معلما هاديا للمبدعين وغيرهم كي لا ينحرفوا عن لغة القرآن وأساليب العرب، وفي ذات الوقت كي يجمعوا كل جديد توصلوا إليه تحت مسمى البديع.

– لم ينقطع البحث والدراسة في مجال البلاغة من خلال المدونة القرآنية من بداية نشأة البحث في القرآن الكريم وإلى يوم الناس هذا، وإن اختلفت الدراسات وتنوعت إلا أنها جميعا تخدم وتطور الدرس البلاغي من خلال معين القرآن الذي لا ينضب.

– أن المادة القرآنية كانت محل الشاهد في أغلب المباحث البلاغية؛ بل إنها تقدمت الفصيح من الشعر في كلام العرب الأوائل، وهذا بلا ريب له أثره الكبير في تطوير الدرس البلاغي، لأن العديد من المواطن سبق القرآن فيها الشعر العربي في إنشاء أنواع جديدة من الأساليب التي لم تعهدها العرب رغم أنها لا تخرج على سمت الكلام عندهم ولا تنكرها عقولهم ولا تنفر منها ألسنتهم.

## الحواشي والإحالات:

1 – الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة : 1394هـ/ 1974م ،4/ 214.

2 – مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (المتوفى: 1367هـ) ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط/3 ، 2/ 303.

3 – المرجع نفسه والصفحة نفسها.

4 – الإتقان: السيوطي، 18/4.

5 – سورة الحجر، الآية: 9.

6 – مناهل العرفان: الزرقاني ، 2/ 313.

7 – دراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل: (ت: 1426هـ) دار المنار، ط: 2 ، 1999م، ص: 331.

8 – المرجع السابق، 2/ 310.

9 – سورة البقرة الآيات: 18. 20 .

10 – دراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل، ص:333 وما بعدها.

11 – جماليات المفردة القرآنية: أحمد ياسوف ، دار المكتبي – دمشق ، ط / 2 ، سنة : 1999م ، ص: 249.

12 – وظيفة الصورة الفنية في القرآن: عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب، ط/1، سنة: 1422 هـ – 2001 م، ص: 395.

13 – دراسات في علوم القرآن :محمد بكر إسماعيل ، ص : 339.

14 – مناهل العرفان :الزرقاني ، 2/ 313.

15 – سورة فصلت، الآية: 39.

16 – سورة ق، الآيات: 7. 11.

17 – مناهل العرفان :الزرقاني ، 2/ 313.

18 – إسفار الفصيح: محمد بن علي بن محمد، أبو سهل الهروي (المتوفى: 433هـ)، المحقق: أحمد بن سعيد بن محمد قشاش، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1420هـ، 1/ 156.

19 – طبقات النحويين واللغويين: محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر (المتوفى: 379هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة: الثانية، ص: 11.

20 – الشعراء، الآيات:192 – 195

21 – الزمر، الآية: 28

22 – المنهاج المختصر في علمي النحو والصرف: عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب اليعقوب الجديع العنزي، مؤسَسَة الريَّان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1428 هـ – 2007 م، ص:5 – 6.

23 – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ) ، دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – 1407 هـ ، المقدمة/ 2.

24 – مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ) ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة: الثانية، 1407 هـ – 1987م ، ص: 416.

25 – المرجع السابق، 1/ 68.

26 – البرهان في علوم القرآن :أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه ، الطبعة : الأولى ، 1376هـ – 1957م ، 2/ 124.

27 – الإتقان: السيوطي ، 4/ 215.

28 – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: 1356هـ) ، دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الثامنة – 2005م ، (ص: 108).

29 – الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص: 177.

30 – قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية: عبد العزيز عبد المعطي عرفة، عالم الكتاب، بيروت، الطبعة الأولى: 1405ه، 1985م، ص: 103.

31 – المرجع نفسه ، ص : 137.

32 – المثل السائر: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: 637هـ) ، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة.القاهرة ، 2/205.

33 – الكشاف: الزمخشري ، المقدمة/2.

34 – دليل البلاغة القرآنية: محمد بن سعد بن حسن الدبل، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، الطبعة: الثانية، سنة: 1431ه.2010م، 1/6.

# Influence of the Holy Quran in the origin of and development of theoretical

**By**: Zouari Ahmed Ali
EL oued University

## Abstract:

Our topic dealt with the influence of the Holy Quran in the course of rhetoric Arabic from the beginning until the development of the rhetorical lesson which became as it is now with different disciplines and subtitles, became apparent and its borders appeared and became accessible to all. so we discussed the features of Quranic language The beginning of the characteristics characterized by the language of Holy Quran until it became a tendency to the early researchers in several areas, including the rhetorical research, as we have pointed out the reasons and motives that led to take care of the language of the Quran and the orientation to study his communication, which was a direct cause of the development of rhetoricallesson, and then after all this stopped at the most important stations that Passed by The text of the calligraphy from origin to evolution, focusing on the impact of the Holy Quran in it.

**key words** : The rhetorical lesson , the impact of the Holy Quran , the rhetorical chapters , the rhetorical arts.